وبشر الصابرين

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :

الكتيبات الإسلامية

www.ktibat.com

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد ألاَّ إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله .. وبعد:

فإنَّ ما يُنغِّص طيب الحياة وصفوها، ويُبدِّد نورها وجمالها، ليس هو البلاء، جنس البلاء، وإنما هو افتقار المبتلى إلى علاج النوازل ودواء البلاء.

لماذا البلاء؟

أخي الكريم:

إنَّ هذا السؤال هو ما ينبغي لك طرحه عند نزول البلاء .. لماذا نزل هذا البلاء؟

وسؤالك هذا هو مُنظارك لسير أسرار بلائك وتشخيص حاله والبحث عن علاجه، فالبلاء – أخي - تمحيص.. قال الله تعالى: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾**.

والبلاء – أخي- خيرٌ ومغفرة، قال رسول الله ﷺ: «**من يُرِد الله به خيرًا يُصِب منه**» رواه البخاري.

وقال النبي ﷺ: «**ما يُصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غمٍ، حتى الشوكة يُشاكها؛ إلاَّ كفَّر الله بها من خطاياه**» رواه البخاري ومسلم.

قال الفضيل: إنَّ الله عزَّ وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

أخي..

فقف رعاك الله مع هذه النصوص .. تمعَّن في مدلولها وتدبَّر معانيها؛ فإنها تدلُّك على أسرار البلاء، وتُعينك على فهم مقصوده وفقه أسبابه .. إنَّه رحمة على كلِّ حال، لكن في سياق تكرهه النفوس!.. ولذلك لَمَّا كان الأنبياء أهل الله وخاصته فقد نالهم من البلاء ما لم ينل غيرهم لِما لهم في ذلك من عظيم الأجر والثواب .. وفي هذا دليلٌ قاطعٌ على أنَّ البلاء لأهل

الصالح رحمة ورفعة .. فعن أبي سعيد الخدري عنه قال:

قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟

قال: «**الأنبياء**»

قلت: ثم من؟

قال: «**الصالحون، إن كان أحدهم ليُبتلَى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحتويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**» رواه ابن ماجه.

وقال أيضا: «**ليودن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء**» رواه الترمذي.

فإذا علمت أنَّ البلاء خيرٌ على كلِّ حال، فاعلم أنَّ الصبر عليه هو أوسع أبواب السعادة في الحياة، ولذلك قال رسول الله : «**إنَّ السعيد لِمن جنب الفتن، ولمن ابتلى فصبر**» السلسلة الصحيحة برقم «975».

توطين النفس على الصبر:

أخي الكريم:

تأمَّل كيف ذكر الله جلَّ وعلا هذا العلاج في كتابه الكريم في أكثر من تسعين موضعا .. فلو لم يكن للصبر منـزلة عظيمة في حياة المؤمن ما تكرَّر ذِكره، لاسيما وقد ذكر الله جلَّ وعلا من ثواب الصابرين ما لا يبلغه ثواب؛ فقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

فكيف تكتسب أخي الكريم صفة الصبر؟ وكيف تجعل منه علاجًا للبلاء؟

* * *

كيف يكتسب الصبر؟

يُعد خُلق الصبر سيدها وأساسها، فهو يحمل على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحِلم والأناة والرفق وترك الطيش والعجلة، فمن فقد خُلق الصبر لم يكد يفلح في شيء.

ولكي تكتسب أخي هذا الخلق لا بدَّ أن تُدرك أنك بدونه هالك، وأنَّ نجاحك وفلاحك

لا يمكن أن يكتمل أساسه أو يرتفع بناؤه إلا بالصبر.

أخي..

تمعَّن في أحوال الدنيا تجدها متقلِّبة متبدِّلة ، لا تستقرُّ على حال؛ فهي مطبوعة على الكدر، وليس لحيٍّ يسكن أرجاءها إلاَّ مدافعة ذلك الكدر، ولن يتأتَّى له ذلك من دون صبر، وهذا يستوي فيه المؤمن والكافر.

فالصبر يمدُّ النفس بالقدرة على الثبات ويمحو موجبات الجزع الذي يهتزُّ في أعماق الإنسان إذا أصابه البلاء كما قال تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ**.

واعلم أنَّ الصبر ينمو في النفس كما ينمو اللحم على العظم، وكما تنمو النبتة في الأرض، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**ومن يتصبَّر يُصبِّره الله**».

ففي هذا الحديث دلالةٌ على أنَّ الصبر يُكتسب بالتصبُّر، وهي كلمة فيها معنى

المسايرة والتدرُّج في التحمُّل، فمن أيقن أنَّ لا علاج لبلائه إلا بالصبر فليوطِّن نفسه على الهدوء، وليُخفِّف جزعه لحظة وساعة.

أخي .. يا من نزل بك بلاء..

تذكَّر أنك إن جانبت الصبر وحالفت الجزع فإنك لن تَرُدَّ الأمور إلى نصابها ولن تُعان على حلِّها، وإنما تجعل من البلاء بلاءين: بلاء نازلة، وبلاء جزع .. وأنك وإن جزعت دهرك فلا بدَّ لك من الاضطرار إلى الصبر، وليس لك عنه من محيص!.. إذن فلتكتسبه بتوطين نفسك على الاحتمال.

* * *

مطالعة ثواب الصابرين:

فمن ثوابهم البشرى لقول الله جل وعلا: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾، ومن ثوابهم نزول الرحمة والهدى لقول الله جل وعلا: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾، ومن ثوابهم الأجر بغير حساب، لقول الله جل وعلا: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ**

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والمؤمن المبتلَى إذا تأمَّل في هذا الشعار دفعه ذلك إلى استحسان الصبر على ما يناله في نفسه وماله وجسده وولده من مصائب.

* * *

الدعاء:

فالصبر منَّةٌ من الله سبحانه يخلقها في قلوب عباده، ولذلك فإنَّ الدعاء من أعظم ما يُستعان به على اكتساب الصبر، ولذلك جاء سؤال الله جلَّ وعلا الصبر في القرآن في آيات منها قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**﴾.

كيف يكون الصبر على البلاء؟

أخي الكريم..

أدب الصبر على البلاء أدب رفيع يوجب الثواب الجزيل وعُقبى الدار كما قال تعالى لعباده الصالحين: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ .. وإليك أخي بعض آداب الصبر:

1- الرضا بالقضاء والقدر:

فهو أول أدب واجب في حقِّ كلِّ مبتلى، ذلك بأنَّ البلاء إنما ينـزل بإذن الله ومشيئته وحكمته وتقديره، فالله سبحانه إذا ابتلى عبده بمرض أو فقر أو نحو ذلك فإنما يبتليه بحكمة وعدل: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾..

وبلاء الله لعبده المؤمن يكون تكفيرًا لسيئاته أو تكثيرًا لحسناته، وهذا كلّه يستلزم من المبتلَى تقبُّل المكاره بالرضا، وهذا لا يكون إلاَّ من صفة مؤمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه .. يقول رسول الله ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر**

فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن» رواه مسلم.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله:

فالمؤمن إذا ابتُلِي بمرضٍ أو فقر أو نحوه من الأعراض التي كلٌّ واحد عرضةٌ لها، فإنه بإيمانه وبما عنده من القناعة والرضا بما قسم الله له، تجده قرير العين، لا يتطلَّب بقلبه أمرًا لم يقرّ له، ينظر إلى من هو دونه ولا ينظر إلى من هو فوقه، وربما زادت بهجته وسروره وراحته، على من هو متحصِّل على جميع المطالب الدنيوية إذا لم يؤتَ القناعة.

الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ص8

سُئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟

قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه.

* * *

2- الاسترجاع عند الصدمة الأولى:

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تُصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرا منها"، إلا أخلف الله له خيرًا منها**» رواه مسلم.

وتأمَّل أخي في شأن أمٍّ مات ابنها حين قال لها عمر بن عبد العزيز: اتقي الله واحتسبيه عند الله واصبري، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أُفسدها بالجزع.

فلا تُفسد أخي صبرك بالتحسُّر والجزع؛ فإنما البشرى للمسترجعين الذي يتفق رضا قلوبهم مع أحوال جوارحهم، فأولئك الذي قال الله فيهم: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾.

* * *

3- ترك الجزع والشكوى لغير الله:

فإنَّ جزع المبتلَى لا تجر عليه إلا زيادة البلاء، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السُّخط**»..

أي: فمن سخط وجزع فله السخط والجزع، ويكون جزاؤه بحسب ما أبداه من جزع وما ظهر عليه من تسخُّطٍ وغضب.

وكما أنَّ الجزع يُوجب زيادة البلاء، فكذلك الشكوى على الناس وإنزال الفاقة بهم توجب زيادة البلاء.

وإذا عَرتك بَليَّةٌ فَاصبِر	
	صَبِرَ الكَريمِ فإنَّه بِكَ
وإذا شَكوتَ إلى ابْن آدم	
	تَشكُو الرَّحيم إلى الَّذي

قال علي بن أبي طالب: **من إجلال الله ومعرفة حقِّه ألاَّ تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك.**

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتها لأحد.

* * *

أخي المبتلى..

وتعلَّم من الأنبياء أدب الشكوى إذ أنزلها على الله وحده، قال تعالى عن يعقوب: **﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾** .. وإنما ينافي الصبر شكوى الله على الخلق، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة، فقال: «يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟!».

*   *   *

أخي المبتلى:

تذكَّر أنَّ صفو الحياة المطلق غاية لا تُدرك؛ فقد خُلقت عالقة بأحزان، مطبوعة على البلاء، بل هي ذاتها في الدنيا بلاء .. ألم تسمع قول الله جل وعلا: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾**.

طُبعَت عَلى كَدرٍ وَأنت	
	صَفوًا مِن الأحزَانِ

وما دام شأن الحياة كذلك فلا خيار لحيٍّ أمامها إلا أن يُوطِّن نفسه على دفع بلائها

ومكابدة أكدارها، كما قال الله جل وعلا: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾**.

ومما يستعان به في علاج البلاء ما ذكر الإمام المنبجي في كتابه «تسلية أهل المصائب»:

الأول: أن يعلم أنَّ الدنيا دار ابتلاء، والكرب لا يُرجى منه راحة.

الثاني: أن يعلم أنَّ المصيبة ثابتة.

الثالث: أن يُقدِّر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة.

الرابع: النظر في حال من ابتُلِيَ بمثل هذا البلاء، ففي التأسِّي راحةٌ عظيمة.

الخامس: النظر في حال من ابتُلِي بمثل هذا البلاء، فيهون عليه هذا.

السادس: رجاء الخلف إن كان من مضى يصحُّ عنه الخلف كالولد والزوجة.

السابع: طلب الأجر بالصبر في فضائله وثواب الصابرين وسرورهم

في صبرهم، فإن ترقَّى إلى مقام الرضا فهو الغاية.

الثامن: أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خيرٌ له.

التاسع: أن يعلم أنه مملوك، وليس للمملوك في نفسه شيء.

العاشر: أن يعلم أنَّ تشديد البلاء يخصُّ الأخيار.

الحادي عشر: أن يُدرك أنَّ هذا الواقع، وقع برضا المالك، فيجب على العبد أن يرضى بما رضي به السيد.

الثاني عشر: معاتبة النفس عند الجزع، وإفهامها أنَّ هذا الأمر لا بدَّ منه، فما وجه الجزع مما لا بدَّ منه؟

الثالث عشر: إنما هي ساعة فكأن لم تكن.

وصل اللهم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.